أمام هذه الحيرة تسترخي فردوس داخل ناموسيتها. لقد اطمأنتْ إلى إغلاق بابها. كأنّها بتحصُّنها تجاه الظاهر والمعلن، صار بإمكانها أن تُصغي إلى الدواخل وتستجيب للذّة المكاشفة.

تزيح الناموسية. تتأمّل استدارةَ ساقيْها تقف أمام المرآة. تتأمّل وجهها الشاحب. تستبدل ثيابها. خجلةً تَنْظر إلى عُريها. «تضحك دون صوت، وتفرد شعرَها على كتفيْها» (ص ٧٠).

لكنّ يأتيها صوتُه لاهثًا «عريانة يا خالة. عريانة... عمري ما شفت واحدة عريانة... ياه يا خالة. أنت حلوة. وظهرك حلو. وكلّ حاجة.» (ص ٧٠ ـ ٧١).

تكاد تهوي. ورجفتُها لا تهدأ. تخمِّن أنّه رآها من ثقب المفتاح. كان يتلصَّص عليها. ويموج الغضبُ داخلها. غدًا تسدّ هذا الثقبَ.

وتَهْمد الحركة. يَهْمد كلُّ شيء. يتلاشى نداؤه «افتحي يا خالة.» ويعود الالتباسُ سيدَ السرد. يعود ليمارس عبر الذاكرة وتداخُلِ أزمنتِها وظيفةَ الحفر داخل الذات الأنثوية، وليَنْسج مستوياتِ الدلالة لهذه العلاقة بين سعد وفردوس بما يَجْعلها تتجاوز معناها الأوديبيَّ المحيلَ على الإثم، لتميل إلى الإفصاح عن دواخل الذات ومكبوتات الجسد ـ في تعقُّدها وتداخلها (فردوس)، وفي ارتباطها في بعض جوانبها بما هو اجتماعيّ (بؤس أهل القرية، وعائلة سعد) وبما هو غريزيّ (ذكورة سعد المبكّرة).

فبالرُّغم من كلّ ما جرى، بقي سعد يأتي إلى فردوس باحثًا عن طعامٍ يأكله. يصيح وهو يلتهم الأطباق الشهية: «تسلم يدك يا خالة» و«كلّه تمام، لا ينقص شيء، وليمة...» وهي تضحك داخل حجرتها وخلف بابها المغلق. لماذا كانت فردوس سعيدة؟ من أجلها، من أجله! لظاهرٍ يُخفي أكثرَ مما يعلن!

فيّ الظاهر: ولدٌ يودّ أن يأكل، وامرأةٌ تصُون نفسَها عن دعاباته الجريئة. وفي الخفاء أنثى ترغب في حضور ذكرٍ يضفي على حياتها ارتعاشةَ وجودٍ ومتعةَ الإحساسِ بنضارة الجسد، وصبيٌّ يستجيب لحوافز ذكورته المتيقّظة

يغيب سعد ويأتي. يبدو كأنّما نسي رؤيةَ فردوس عاريةً. نسي الأنثى/الجسد، وعادت صورةُ المرأة/الأم. يطلب منها أن تفتح الباب. يَعِدُها بأن يَبْقى في مكانه. فقط يتكلّمان «زي زمان.» نتكلّم، يقول، ونضحك. يستغرب سعد غضبَها منه: «طول عمري يدي على رجلك وذراعك وكتفك ولا تغضبين» (ص ٧٨) وتتذكّر هي كيف كانت تغيِّر ملابسَها في حضوره، شأنَ بعض الأمهات أمام أولادهنّ. «تفعل ولا يَخْطر على بالها شيء» (ص ٧٩).

ويجري الكلام، ويستمرّ السردُ مستعيدًا الآن أصواتَ رفاق سعد الذين يسألونه عن حقيقه علاقته بها، وأين لَمَسها. يقف إلى جانبها مدافعًا عن نفسه، عن العلاقة «وقلتُ إنّكِ مثل أمي» (ص ٨١)، ولكنّ اللّه صنعكِ «من طينة غيرِ التي يَصْنع منها أمثالَ أمي» (ص ٨٢).

تبدو فردوس صورةً لأمٍ مثال، مشتهاةٍ بأكثر من معنى فهي، عكس أمهات العزبة، تَجْمع بين الأنوثة والأمومة، بين الرغبة والحنان، بين ما يكفي حاجاتِ العيش والجسد وما يرضي الإحساسَ بجمال الشكل والروح. كأنّها الجنّة.

تستريح فردوس لدفاعه عنها. يعود إليها شيءٌ من هدوئها. نشطةً تبدو. تُقْبل على الحياة: تفتح بابها، «تغيِّر من وضع الأشياء في البيت» (ص ٨٦)، تخرج، ترمي الطرحةَ على كتفها، تمشي مع عنزتها، تتأمّل «أحواض القمح الممتدة إلى بعيد . » (ص ٨٨) أهو وعيُها الذي استراح، تاركًا لمخيّلتها أن تَنْعم برغائبها المكبوتة؟ كأنّ الطبيعة حولَها امتداد لدواخلها.. توقظ جمالها، يؤنسها، وتحاور دلالاته وحدتَها.

تراهن فردوس على عودة سعد في صورة الولد الذي كان. تعودَ إليها مشاعرُ الأمومة كأنّها ستارٌ لرجفة جسدها، لرغبتها في حضوره الملغّم بأكثر من معنى. لكنّه لا يأتي. «أيامًا طويلة لا تراه.» ثم تراه عند عودتها من الدكان. في المقهى يجلس معهم، رفاقه، أمام التلفزيون. تضطرب.

هل شعرتْ بانصرافه الفعليّ عنها؟

تعاتب نفسَها على اضطرابها. لكنّ النوم لا يطاوعها. تحدِّق في ما حولها، ويجري دمعُها من طولِ ما حدّقتْ (ص ٩٤)

ويأتي سعد بعد طول غياب ويناديها «يا خالة.» ثم يقول إنّ رفاقه عرفوها، وأنّها جاءت تَبْحث عنه في المقهى. يتغامزون. «دائمًا أنا وأنت.» ويقولون « ... الآن تأكّدنا أنّك تنام معها» (ص ٩٧). ويشتبك معهم يدافع عنها، عن نفسه، عن الحقيقة. هذا ما نقوله، نحن القرّاءَ، ولا ندري ما هي الحقيقة. فالعلاقة تبقى ملتبسة، تقف على حافة هاوية، ولا تهوي إلى وضوحها.

يومَ علمتْ فردوس بأنّهم خطبوا لسعد (أمّه هي التي دبّرتْ له أن يتزوّج) نظرتْ إليه. «نسيتْ نفسَها وراحت تحدِّق إليه» (ص ١٠٢) قالت إنّه سيأتي دون أن تَعْرف ما الذي يَجْعله يأتي.

في رقادها سمعتْ خطوتَه في الحوش، وصوتَه: «يا خالة.» جاء يحكّ بظفره بابَ الحجرة، شأنه قبل ذلك. مرة أخرى ناداها. كان صوتُه خافتًا «كأنّهما يَهْمس لنفسه» (ص ١٠٥).

هي داخل غرفتها. وهو خلف الباب. وصمتٌ يسود، يضاعف الحجابَ بينهما.

يذهب سعد هذه المرة، كما تقول لنا الروايةُ في آخر كلمةٍ يخطّها السرد. وتبقى لنا الدلالاتُ في تعدُّدها الملتبس وتأويلِها الممتع.

بيروت

دراسة أدبية في العدد القادم:

■ جان طنوس يكتب عن أوراقي... حياتي، لنوال السعداوي